١٠٢
لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة السادسة - العدد الثاني عشر
(صفر- رجب ١٤٤٧)

رؤى أئمّة الدين عليهم السلام و رجال الصوفيّة في طلب الدنيا؛ دراسة مقارنة

آية اللّٰه الشيخ محمد تقي شريعتمداري

الملخص: المقال دراسة مقارنة بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام و مدرسة الصوفيّة في النظر إلى الدنيا و طلب الرزق، و يؤكّد على مبانى الغزالي في كتابه إحياء العلوم و أخبارهم الموضوعة.

الكلمات المفتاحيّة: ابوحامد الغزالي؛ مدرسة أهل البيت الأخلاقية؛ طلب الرزق؛ الصوفيّة؛ إحياء العلوم (كتاب)

نبذة عن المؤلف

آية الله الحاج الشيخ محمد تقي شريعتمداري من ابرز علماء الدين في طهران (١٣١٣ -١٤٠٠هـ.ش.)

الدراسة والمقدمات: تلقى دروسه الابتدائية في الفارسية والرياضيات عند والده المكرم المرحوم حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ غلام رضا شريعتمداري، وجزءا منها عند الأستاذ الكريم الحاج السيد حسين مدرسي، ولم يلتحق بالمدارس الرسمية. كما تعلم الجزء الأكبر من الأدب العربي (الصرف والنحو) لدى والده المرحوم، وفي عام ١٣٢٨ هـ.ش التحق بمدرسة «مروي» في طهران، وكان مشتغلا فيها بالتحصيل والمباحثة والتدريس حتى نهاية عمره الشريف.

الأساتذة:

تتلمذ في الحوزة العلمية بطهران على يد أساتذة كبار، منهم:

- **في الأدب:** درس قسما منه عند المرحوم آية الله الحاج السيد مرتضى تنكابني، وقسما عند حجة الإسلام السيد مرتضى آل طعمة.
- **في اللمعتين والقوانين والمعالم والشرائع:** عند المرحوم حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد صدر الدين رضوي قمي.
- **في الفلسفة:** عند الآيات المرحوم الحاج السيد أبو الحسن رفيعي قزويني، والحاج ميرزا أبو الحسن شعراني، وبشكل رئيسي عند الأستاذ الشهيد مطهري.
- **في الكفاية والرسائل والمكاسب:** عند المرحوم آية الله الحاج السيد عباس آية الله زاده أصفهاني (نجل المرحوم آية الله العظمى السيد محمد فشاركي أصفهاني). إضافة إلى ذلك، درس الكفاية أيضا عند المرحوم آية الله الحاج الشيخ عبد الرزاق قائني.
- **في دروس الخارج:** حضر بشكل عمدة عند المرحوم آية الله العظمى الحاج الشيخ محمد تقي آملي، حيث كتب تقريرات أصوله وقسما من تقريرات فقهه. كما شارك في دروس الخارج للآيات العظام الحاج السيد أحمد خوانساري، والحاج الشيخ عبد الرزاق قائني، والسيد أبو الحسن رفيعي قزويني.

التدريس: بدأ سماحته بتدريس «بحث الخارج» بعد رحيل المرحوم آية الله العظمى خوانساري. وعلاوة على ذلك، قام على مدى عشرات السنين بتدريس تفسير القرآن، وشرح نهج البلاغة، وشرح الصحيفة السجادية، ودورات مختلفة في الأحكام الشرعية لمستويات متنوعة (للشباب، والكسبة، وغيرهم).

آثاره ومؤلفاته: من آثاره المطبوعة يمكن ذكر الكتب التالية:

- تعليقات على تقريرات شرح المنظومة للأستاذ مطهري، المجلد الأول (والمجلدات اللاحقة قيد الطبع).
- تعليقات على شرح الصحيفة السجادية.
- شرح خطبة الزهراء عليها السلام (شرح الخطبة الفدكية باللغة العربية).
- شرح الخطبة الفدكية (باللغة الفارسية).
- مباهلة.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد دون تقريرات دروس جمع من الأساتذة الآخرين والتي لم تنشر بعد. كما قام بعض تلامذة سماحته بتدوين تقريرات دروسه.

روي عن الإمام السجاد عليه السلام:

«وَخَلَقَ لَهُمُ النَّهَارَ مُبْصِراً لِيَبْتَغُلوا فِيهِ مِنْ فَضْلِهِ، وَلِيَتَسَبَّبُوا إِلَى رِزْقِهِ، وَيَسْرَحُوا فِي أَرْضِهِ، طَلَباً لِمَا فِيهِ نَيْلُ الْعَاجِلِ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَدَرَكُ الْآجِلِ فِي أُخْرَاهُمْ.» (الصحيفة السجادية، الدعاء السادس)

أقول: «مُبصِراً» تعني (الذي يُبصر)، وهذا وصف للناس وليس للنهار؛ وإجراؤه وصفاً للنهار يفيد «المبالغة»، كما يقال: «زيدٌ عدلٌ». ويُستفاد من جملة «ليبغوا فيه من فضله» أن طلب الرزق أمر ممدوح، وأن مسلك الصوفية والدراويش الذين لا يسعون وراء المعاش ويجعلون أنفسهم «كَلّاً» (عالةً وعبئاً) على الناس، هو مسلك مذموم بشدة.

ومن الجدير هنا ذكر عدة روايات في هذا الباب:

١. روى الشيخ المفيد (أعلى الله مقامه) في كتاب الإرشاد في ذكر أحوال الإمام الباقر عليه السلام:

... عن عبد الرحمن بن الحجاج عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان محمد بن المنكدر يقول: ما كنت أظن أن علي بن الحسين ترك خلفاً أفضل منه حتى رأيت ابنه محمد بن علي، فأردت أن أعظه فوعظني. فقال له أصحابه: وكيف وعظك؟ قال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة، فلقيت محمد بن علي (وكان رجلاً بديناً) وهو متكئ على غلامين له. فقلت في نفسي: شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة وعلى هذه الحال في طلب الدنيا؟ والله لأعظنه. فدنوت منه وسلمت عليه، فرد عليّ السلام وهو يتصبب عرقاً ويلهث. فقلت: أصلحك الله! شيخ من قريش في هذه الساعة وعلى هذه الحال في طلب الدنيا! أرأيت لو جاءك الموت وأنت على هذه الحال؟ فانتزع يده من الغلامين واستند وقال: «والله لو جاءني الموت وأنا في هذه الحال، لجاءني وأنا في طاعة من طاعات الله، أكف بها نفسي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف الموت لو جاءني وأنا على معصية من معاصي الله». فقلت: يرحمك الله، أردت أن أعظك فوعظتني. (الإرشاد للشيخ المفيد: ج٢، ص ١٦١-١٦٢).

إن الخبر المذكور من الأخبار المعتبرة، وقد ورد في الكافي (٥؛٧٣) والتهذيب (٦؛٣٢٥، ح ٨٩٢) أيضاً. ويُفهم من التدقيق في الحديث أن «ترك الدنيا» عند الصوفية نابع من الكسل والدعة (طلب الراحة)، وكان محمد بن المنكدر يقترح ذلك، فوعظه الإمام وحذره من هذا النهج الخاطئ ومن العيش عالةً على الآخرين (التطفل).

٢. ونقل المجلسي في المجلد ١٠٠ من البحار (طبعة بيروت، ص ٣) عن «قرب الإسناد» بسنده عن موسى بن بكر قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «من طلب هذا الرزق من حله ليعود به على نفسه وعياله كان كالمجاهد في سبيل الله».

٣. وروى أيضاً في ص ٧ عن كتابي «معاني الأخبار» و«ثواب الأعمال» أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال».

٤. ونقل في الصفحة نفسها عن الصادق عليه السلام أنه كان يقول: «لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال يكف به وجهه (يصون به ماء وجهه) ويقضي به دينه».

٥. وجاء في حديث آخر: «من طلب الدنيا استعفافاً عن الناس وسعياً على أهله

وتعطفاً على جاره لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر».

٦. ونقل في ص ١٣ عن كتاب «عدة الداعي» أن النبي الأكرم ﷺ قال: «الْكَادُّ عَلَى عِيَالِهِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أي: الذي يسعى ويجهد من أجل عياله كالمجاهد في سبيل الله.

٧- نقل في كتاب «وسائل الشيعة» (ج ١٢ - كتاب التجارة، ص ٣) عن كتاب «من لا يحضره الفقيه» أن معلى بن خنيس قال: تأخرت عن السوق، فرآني الإمام الصادق عليه السلام فقال: «اغدُ إلى عزك».

يقول الكاتب: يشير هذا الحديث الشريف إلى أن الإنسان إذا قصر في طلب المال، فقد عزة نفسه، وهذا المضمون ورد في روايات متعددة.

٨- وفي نفس الكتاب (ص ٦) ورد (نقلاً عن فروع الكافي) أن معاذ بن كثير قال للإمام الصادق عليه السلام: لقد أيسرتُ (أصبحت ثرياً)، فهل أترك التجارة؟ فقال عليه السلام: «إن فعلت ذلك قلّ عقلك» (أو ما بهذا المضمون).

٩- وفي نفس الكتاب والصفحة جاء: قال أسباط بن سالم: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فسألني عن حال عمر بن مسلم، فقلت: هو بخير ولكنه ترك التجارة. فقال عليه السلام ثلاثاً: «عمل الشيطان». أما علم أن النبي الأكرم ﷺ اشترى من عير أتت من الشام فربح فيها ما قضى به دينه ووسع به على قرابته؟ يقول الله تعالى: «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ...» (النور: ٣٧). يقول القصاصون إنهم لم يكونوا يتاجرون، كذبوا، ولكنهم كانوا يتركون التجارة وقت الصلاة، وهم أفضل ممن حضر الصلاة ولم يتاجر.

١٠- وفي ص ١٠ من نفس الكتاب: جاء علاء بن كامل وجلس بين يدي الإمام الصادق عليه السلام وقال: ادع الله لي أن يرزقني في دعة (راحة). فقال عليه السلام: «لا أدعو لك، اطلب كما أمرك الله».

بعد التدقيق في الروايات أعلاه، يرجى الانتباه إلى عدة مطالب:

المطلب الأول: أن ترك الكسب عند الصوفية نابع من الكسل وطلب الراحة لا من الزهد، كما يُفهم من الرواية الأولى وغيرها.

المطلب الثاني: أن «مطلوبية الكسب» في الشرع أمر مسلم به عند الأئمة عليهم السلام حتى للأغنياء، كما صرحت بذلك الروايتان ٨ و ٩.

المطلب الثالث: أن السعي للكسب واجب لتحصيل نفقة الزوجة الدائمة، وكذلك لأداء الدين الحالّ الذي يطالب به الدائن؛ لأن القادر على الكسب لا يعد «معسراً» حتى يجب إنظاره (إعطاؤه مهلة)، نعم إذا كان السعي للكسب فيه عسر وحرج عليه، فلا يجب.

وعبارة الشهيد الثاني في «شرح اللمعة» في هذا المقام هي:

«لوجوب قضاء الدين على القادر مع المطالبة والمكتسب قادر ولهذا تحرم عليه الزكاة وحينئذ فهو خارج عن الآية وإنما يجب التكسب فيما يليق بحاله عادة ولو بمزاجرة نفسه...».

المطلب الرابع: أن المطلوب في طلب الرزق هو الإجمال (الاعتدال) في الطلب. جاء في الوسائل، ج ١٢، ص ٣٠ باب «استحباب الاقتصاد في طلب الرزق»: قال الصادق عليه السلام: «ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع ودون طلب الحريص الراضي بدنياه المطمئن إليها». (فروع الكافي، ج ١، ص ٣٥٠). أي يجب أن يكون سعيك للمعيشة أرفع من عمل «المضيع»، ودون طلب «الحريص» الذي رضي بالدنيا واطمأن إليها.

يقول الكاتب: الجملة الواردة في هذا الحديث الشريف في وصف الحريص والتي فسرت حقيقته، تشير إلى الآية الكريمة (يونس: ٧): «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا...». وأما كلمة «المضيع»، فالمراد تضييع الحقوق والمنافع التي طلبها الشارع، وتشمل نفقة الأهل والأولاد وصلة الرحم وكل عمل خير يطلب به ثواب الآخرة، كما روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «لا يفوتنكم خير الدنيا فإن الآخرة لا تنال ولا تلحق إلا بالدنيا».

المطلب الخامس: أن مشاهير العرفاء والصوفية كسفيان الثوري وعباد بن كثير، كانوا يعيشون في القرن الثاني، وكانوا بصدد الإشكال والاعتراض على الأئمة الطاهرين. وكما ورد في الباب الخاص بأحوال أصحاب وأهل زمان الإمام الصادق والإمام الرضا في

البحار (ج ٤٧ و ٤٩)، يجدر بنا ذكر عدة روايات عنهم:

١- روى المجلسي في (البحار، طبعة بيروت، ج ٤٧، ص ٣٥٤) نقلاً عن رجال الكشي: دخل سفيان الثوري على أبي عبد الله الصادق عليه السلام وعليه ثياب جياد، فقال: يا أبا عبد الله! ما كان آباؤك يلبسون مثل هذا.

فقال عليه السلام: «كان آبائي في زمان مقفر (صعب)، وهذا زمان قد أرخت الدنيا عزاليها (أقبلت بالرخاء)، فأحق الناس بها أبرارها».

يقول الكاتب: انظر إلى هذا الخبيث كيف لا يعرف إمام زمانه وحجته ويطلق لسانه بالاعتراض.

٢- حديث مفصل في نفس الصفحة من رجال الكشي، وفيه أن جماعة دخلوا على الصادق عليه السلام، وكان أحدهم ينقل روايات موضوعة ينسبها كلها لسفيان الثوري عن الصادق عليه السلام، ومن العجيب أن الإمام قال: لو رأيت الرجل الذي تحدث عنه (جعفر بن محمد) وقال لك إن هذا الكلام كذب وأنا لم أقله، فهل تقبل منه؟

أجاب: لا. فسأله الإمام: ولماذا؟ قال: لأن هناك من شهدوا على ذلك، وشهادة أحدهم نافذة في العتق.

وهذا الحديث لافت جداً ولم نورده هنا لطوله.

٣- (البحار، طبعة بيروت، ج ٤٧، ص ٣٦١) نقلاً عن الكافي: روى ابن القداح أن الصادق عليه السلام كان متكئاً عليّ - أو قال على أبي - فلقيه عباد بن كثير وعليه (على الإمام) ثياب مروية حسنة. فقال: يا أبا عبد الله أنت من أهل بيت النبوة وكان أبوك كذا وكذا، فما هذه الزينة التي عليك؟ لو لبست ثياباً أدون من هذه؟

فأجابه الصادق عليه السلام: «يا عباد! من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ إن الله عز وجل إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يراها عليه؛ ليس في لبس هذا غضاضة. ويحك يا عباد! أنا بضعة من رسول الله فلا تؤذني...».

انظر في هذا الحديث كيف يعترض هذا الصوفي على إمام زمانه وحجته، حتى

يرد عليه الإمام بصريح القرآن (الأعراف: ٣٢)، ومع ذلك لا يتنبه ولا يعتذر، حتى يقول له الإمام: أنا بضعة من النبي فلا تؤذني.

كان أحد أساتذتي الكبار، الجامع للمعقول والمنقول، آية الله الحاج السيد محمد سعادت مصطفوي يقول: لم يكن خلفاء الجور وحدهم من زاحموا الأئمة الطاهرين وغصبوا حقوقهم، بل ظهرت فرق مختلفة عارضت أوصياء رسول الله ونازعتهم؛ ففي الفقه أمثال أبي حنيفة، وفي أصول الدين الفلاسفة والمتكلمون، وفي جوانب من الأخلاق ونمط العيش الصوفية والعرفاء.

من المناسب هنا إيراد رواية جاءت في الكافي (ج ١ ص ٣٩٢) (بحار الأنوار: ج ٤٧، ص ٣٦٤): يقول سدير: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام - وهو داخل المسجد الحرام وأنا خارج - فأخذ بيدي واستقبل البيت وقال: «يا سدير! إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيعلمونا ولايتهم، وهو قول الله تبارك وتعالى: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى» (طه: ٨٢) - وأومأ إلى صدره - وقال: إلى ولايتنا».

ثم قال: «ألا أريك الصادين عن دين الله؟».

ثم نظر إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري - وكانوا محلقين في المسجد - وقال: «هؤلاء الصادّون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين. إن هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحداً يخبرهم عن الله وعن رسوله، لجاؤونا فخبرناهم عن الله وعن رسوله».

يقول المؤلف: إنه لمؤسف جداً أن بعض علمائنا الإمامية انخدعوا بهؤلاء «الصادين» و«المضلين»، ولم يكتفوا بعدم التصريح بكفرهم وزندقتهم، بل قاموا بنقل كلماتهم كـ «موعظة». ومن العجيب أن بعض شراح «الصحيفة» قالوا: «أما السالكون من الصوفية بعد عصر الصحابة، فجمع منهم اختاروا الخشونة وترك اللذات والطيبات، وجمع آخر اختاروا التنعم، وما رجحه المحققون من السالكين من ترك اللذات لا ينافي الشريعة، لأنهم عالمون بأسرار الشريعة، وطريقتهم أقرب للسلامة من أهل التنعم، لأن التنعم جولان الشيطان».

هذا الكلام لا يروق لنا، وكأنّ الشارح المذكور لم يكن له اطلاع كافٍ على الروايات الإمامية، وكان فنّه مقتصراً على الأدب.

إن الرد على الصوفية في رواياتنا الإمامية شديد لدرجة أنه حيثما شُمّت رائحة «ترك الدنيا» منهم، كان الأئمة المعصومون يردونه بصراحة. تأمل في الحديث التالي المنقول عن «كشف الغمة» (البحار: ج ٤٩، طبعة بيروت، ص ٢٧٥):

قال الآبي في كتاب «نثر الدرر»: دخلت جماعة من الصوفية على الرضا عليه السلام واستهلّوا كلامهم قائلين: إن أمير المؤمنين - المأمون - نظر فيما ولاه الله من الأمور فرآكم أهل البيت أولى الناس، ورآك أولى أهل البيت، وإن الأمة تحتاج إلى من يأكل «الجشب» (الطعام الخشن) ويلبس الخشن ويركب الحمار ويعود المريض. (أرادوا بهذا الكلام أن يملوا على الإمام الرضا خطاً ومنهجاً).

فكان الإمام متكئاً فاستوى جالساً وقال: «كان يوسف نبياً يلبس أقبية الديباج مزررة بالذهب، ويرتفق بمراكب آل فرعون. ويحكم! إنما يراد من الإمام القسط والعدل؛ إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز. إن الله تعالى لم يحرم لباساً ولا مطعماً». ثم تلا هذه الآية: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...» (الأعراف: ٣٢). (كشف الغمة: ج ٣، ص ١٤٧).

المطلب السادس: أسباب انخداع الناس بكلام الصوفية عدة أمور:

١- أنهم يجوزون للناس الكسل وطلب الراحة.

٢- أنهم يحررون الناس من التقيد بقيود الشرع، حتى أنهم يُسقطون الصلاة والفرائض الأخرى عمن «وصل إلى الحق» في زعمهم.

٣- كثرة التلاعب بالألفاظ وصياغة العبارات في كلامهم، حتى أنهم يتسابقون في هذا الأمر.

على سبيل المثال، نشير إلى نموذج ذكره ابن أبي الحديد في باب الصبر من صفات العارفين:

وقف رجل على الشبلي فقال: أي الصبر أشد على الصابرين؟

قال: الصبر في الله. قال: لا. قال: الصبر لله. قال: لا. قال: الصبر مع الله. قال: لا.

فسأله: فأي الصبر؟ قال: الصبر عن الله. فصرخ الشبلي صرخة شديدة ووقع مغشياً عليه.

أورد ابن أبي الحديد هذا الكلام في ذيل خطبة أمير المؤمنين التي ألقاها عند تلاوة الآية الكريمة «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ» (النور: ٣٧). (نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٢).

في ذيل هذه الخطبة تطرق ابن أبي الحديد لذكر مقامات العارفين، وادعى أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ناظر إليهم، ونقل كلمات سفيان الثوري وغيره، ومن المناسب أن نورد جملاً من تلك الكلمات لنبين بطلانها.

(أ) في باب الخشوع والتواضع نقل عن إبراهيم أدهم أنه قال: ما سررت قط سروري في ثلاث مواطن:

الأول - كنت في سفينة وكان فيها رجل مضحك يضحك الناس، فقال: كنا نأخذ «العلج» (الكافر) من بلاد الترك هكذا، وأخذ شعر رأسي وهزني - فسررت أنه ليس في السفينة أحد أحقر مني ليكون أداة له.

الثاني - كنت مريضاً في مسجد، فقال لي المؤذن: اخرج، فلم أستطع، فأخذ برجلي وجرني إلى الخارج جراً.

الثالث - كنت في الشام وعلي فروة، فمن كثرة قملها لم أكن أميز هل الشعر للفروة أم للقمل؟

انظر إلى هذا الكلام وناقله الذي نقل في صفحة سابقة عن أبي سعيد الخدري في وصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «... كان متواضعاً في غير ذلة»؛ وانظر إلى هذا الصوفي قاطع الطريق الذي استحسن الحقارة والذلة ورضي بالقذارة والوسخ واعتبر كل ذلك تواضعاً وخشوعاً. ألم يقرأ القرآن: «... يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» (البقرة: ٢٢٢)، ولم ينظر في الحديث النبوي: «النظافة من الإيمان»؟ ألم يكن ماء النهر في متناول هذا القذر ليغسل فروته؟

(ب) في باب الرضا يكتب: قال الشبلي مرة بحضور الجنيد: «لا حول ولا قوة إلا بالله». فقال الجنيد: أرى أن قولك هذا نابع من ضيق الصدر، وضيق الصدر من عدم الرضا بالقضاء.

وبطلان هذا القول واضح، لأنه من المسلّم أن هذا الذكر مأمور به من قبل الرسول الأكرم ﷺ وهو لطلب الاستعانة من الله، كما عُلمنا في سورة الحمد المباركة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

(ج) ونقل عن أبي سليمان الداراني: «الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذ به من النار».

من العجيب كيف يتم نقل هذه الأباطيل، والأعجب كيف وقع علماء الشيعة في هذا الفخ. إذا طالع أحد كتاب «إحياء العلوم» للغزالي، سيجده مملوءاً بهذه الخرافات، ثم يرى أن المرحوم الفيض الكاشاني قد نقلها أيضاً في «المحجة البيضاء»، وتبعه النراقيان في «جامع السعادات» و«معراج السعادة». وكأنهم قبلوا كلمات بذوقهم ولم يلتزموا بعدم تجاوز كلمات معلمي الدين الذين هم الأئمة الطاهرون. نعم، إن كتابي «مرآة الرشاد» و«مرآة الكمال» للعالم الزاهد الحاج الشيخ عبد الله المامقاني منزهان عن هذا العيب الكبير.

الفتنة الكبرى

يعدّ كتاب «إحياء العلوم» للغزالي المروج الأكبر للتصوف. هذا الكتاب مشحون بكلمات رؤوس الصوفية كالجنيد، والشبلي، وسفيان الثوري، وسري السقطي، وبايزيد البسطامي، وإبراهيم أدهم. وكما قلنا سابقاً، فإنهم يجذبون الانتباه بالتلاعب اللفظي وقول الغرائب، وقد أكد الغزالي كثيراً: إياك أن ترد كلامهم، وإن لم تصدق فلا تخلُ من الإيمان بإمكانه.

وبما أن الغزالي يمتلك بياناً قوياً في ترتيب المقدمات، فإنه يخدع من يعتمدون على ذوقهم، ولهذا السبب جعل بعض علماء الإمامية الذين ألفوا كتباً في الأخلاق «إحياء العلوم» أصلاً لهم. حتى المرحوم الفيض الذي أراد إصلاح «إحياء العلوم» وكتب

«المحجة البيضاء» لهذا الغرض، ارتكب أخطاء كبيرة نشير إلى بعض أمثلتها أدناه:[1]

١. يقول الغزالي في كتاب المحبة (ص ٢٩٧): «قال سيد الصديقين لك: العجز عن درك الإدراك إدراك» (ومراده أبو بكر) ولم يذكر سنداً، فنقله الفيض (ج ٨، ص ٢٤) وغيّر عبارة «سيد الصديقين» إلى «سيد الأوصياء».

٢. وكذلك يقول الغزالي (ص ٢٨٧): «وقال أبو بكر الصديق لكل من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر»، فنقله الفيض (ص ٦) بصورة: «وقال بعض الصحابة...».

٣. وكذلك تعبير الغزالي «قول عمر» (ص ٣٤٣)، حوله الفيض (ص ١٩٩) إلى «بعض الصحابة».

نحن نقول للفيض: الإشكال ليس في ألفاظ الأسماء. الإشكال يكمن في اتخاذ هؤلاء قدوة والتعلم من المطالب المنسوبة إليهم. وكما مر في حديث الإمام الباقر (ص ٨٧): لو أن هؤلاء الأخابث جلسوا في بيوتهم ولم يجد الناس من يخبرهم عن الله والرسول لجاؤوا إلينا.

خلاصة القول هي أن مسائل الدين، سواء أصول العقائد أو الفروع والأحكام أو الأخلاق ونمط الحياة، يجب أن تؤخذ جميعها من المعلمين الذين عينهم الله وجعلهم حججاً وأبواباً إليه، لا من غيرهم. ولهذا نحن نعترض أيضاً على سائر العلماء الذين اتبعوا نفس منهج الغزالي.

فإن قلت: لقد أمرنا أن نأخذ الحكمة من أي كان: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها»، وقال الله تعالى: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...» (الزمر: ١٨).

نجيب: هذا الكلام صحيح، ولكن يجب «إحراز» كون الكلام حكمة وأنه «أحسن القول»، وهذا لا يتأتى إلا بعد التعلم الكامل من الأئمة المعصومين وأخذ المطالب

---

١. يكتب في ريحانة الأدب: يقول الجنيد إن بايزيد بيننا كجبرائيل بين الملائكة، وإنه كان ولياً بالفطرة... (أكاذيب).

المحكمة، ومن ثم تمييز الحكمة المسموعة من الآخرين. أما في المواضع التي يوجد فيها تعارض بين كلام الأئمة الطاهرين والآخرين، مثلاً يدعو الصوفية إلى ترك اللذائذ والطيبات وأئمتنا يدعون للاستفادة منها، أو مثال آخر أن أئمتنا يشجعون على العمل والتجارة والصوفية يدعون لتركها، فبالطبع لا ينبغي الميل لكلام الآخرين الباطل قطعاً.

من آثار نفوذ كلمات الصوفية بين الشيعة قولهم: «لا ينبغي أكل الطعام بتلذذ». سمعت من أحد الأساتذة أنه يمدح شخصاً كان يذر الملح على البطيخ ليذهب طعمه، وسمعت عن آخر أنه لما قل ماء الثريد أضاف أحدهم ماء بارداً، ورداً على اعتراض الآخر بأنك أذهبت طعم الطعام، أجاب: لا ينبغي أكل الطعام لأجل طعمه. في حين أن التلذذ بالنعم الإلهية أمر حسن، وفي خاطري رواية مفادها أن من شرب الماء بتلذذ ألذه الله بشراب الجنة. ويبدو أن آيات القرآن الكريم حيث قالت «لَحْماً طَرِيًّا» (النحل: ١٤ وفاطر: ١٢) (حيث ذكرت طراوة اللحم) وحيث قالت «الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ» (الأعراف: ٣٢) تشير إلى هذه النعمة والاستفادة منها.

ومن الأغلاط النافذة في كتب الشيعة قصة «برخ» التي أوردها الغزالي في ص ٣٣١ والفيض في ص ٨١.

أولاً: لا سند لها، وقد ذكرها الغزالي بعد قوله إن من آثار الأنس الانبساط والإدلال، فقال: ومثاله مناجاة البرخ.

ثانياً: الغزالي نفسه يقول: وأحياناً يكون لهذا الانبساط صورة منكرة، لأن فيه جرأة وسوء أدب، ولكنه يُتحمل ممن هو في مقام الأنس، ومن لم يكن في ذلك المقام وتشبه بهم هلك وأشرف على الكفر (يجب أن نسأل ما الدليل على هذا التفصيل؟).

ثالثاً: تشتمل هذه القصة على خروج موسى - على نبينا وآله وعليه السلام - للاستسقاء مع سبعين ألفاً، فيأمره الله أن يذهب ويطلب من عبدي «برخ» ليدعو (قرائن كذب القصة، وفي نهايتها منكر آخر أيضاً).

هل يجوز هذا التساهل في أمر الدين بنقل كل ترهات؟

ورواج أشعار «المثنوي» للمولوي هو من هذا الباب أيضاً، وقصة «موسى والراعي» هي من هذه الأباطيل، وأمثالها في المثنوي كثير. وفي قصة عن معاوية مدحه بحيث لا يستطيع الشيطان خداعه (الدفتر الثاني).

الغزالي موالٍ لأعداء أهل البيت، ومن هذا الباب مدح الشام وذم العراق. يكتب في ص ٣٤٤:

«وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار... وذكر كعب الأحبار يوماً العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر وفيه الداء العضال، وقد قيل قسم الخير عشرة أجزاء فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك» إلى آخر ما أورده في هذا الباب. ولا تظن أن الغزالي لم يكن يعلم أن العراق مركز محبي أهل البيت والشام مركز أعدائهم. والغزالي هو نفسه الذي أشكل على جواز لعن يزيد. وقد روى الغزالي عن سالم مولى أبي حذيفة: «من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم» ونسب ذلك - معاذ الله - للنبي الأكرم، والحال أن سالماً المذكور من المنافقين وممن تحالفوا على مخالفة أهل البيت (راجع سفينة البحار - مادة سلم - للمزيد).

حاصل الكلام أن الغزالي من المتعصبين والمعاندين لأهل البيت، إلا أنه يقال إنه كتب في آخر عمره كتاباً باسم «سرّ العالمين» وتاب عن العقائد الفاسدة؛ ولكن ما الفائدة؟ فكتبه الرائجة كلها من الأراجيف كما بينا.

٤- (استكمالاً للنقاط السابقة) أهم سبب لانخداع الناس بكلام المتصوفة هو أنهم يتشدقون بذكر الله دائماً ويدعون شهوده. والبعض يعتقد بالحلول والاتحاد. فمنصور الحلاج (واسمه حسين بن منصور) يقول «أنا الحق» و«ليس في جبتي إلا الله».[1]

والمصيبة العظمى أن جماعة من علماء الشيعة ظنوا «وحدة الوجود» صحيحة،

---

١. فضلاً عن كل هذا، فقد ورد النهي صراحة في أخبارنا عن «الإدلال» (التيه والافتخار بالعبادة)، وقالوا: «إن المدلّ لا يصعد من عمله شيء». (مستدرك الوسائل، ج ١ ص ١٣٨ ط. مؤسسة آل البيت عليهم السلام)

واعتبروها مبينة لقيومية الحق تعالى وإحاطته بجميع الأشياء وأنه أقرب من حبل الوريد ومعيته لكل شيء، وقد ذكر ملا صدرا الشيرازي - الذي له بيان رنان وقوي للغاية - مباني استدلالية وفلسفية لها. والذين قبلوا فلسفته وعرفان محيي الدين بن عربي، أصبح لديهم حسن ظن بالصوفية وخضعوا لسائر أباطيلهم أيضاً.

نحن في تعليقاتنا على الفلسفة الصدرائية وما يسمى بالحكمة المتعالية التي كتبناها على «شرح المنظومة» للسبزواري، قمنا بإبطالها، ولا بأس بالإشارة هنا إلى مطلب واحد، وهو أنه في جميع آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن «قيومية» الحق، تم حفظ الاثنينية (الغيرية) بين الخالق والمخلوق.

مثلاً قال: «... بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ» (فصلت: ٥٤) ولم يقل: «هو كل الأشياء». (محيط - محاط).

وقال: «... أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (ق: ١٦) ولم يقل: «هو حبل الوريد» أو «هو هو».

وقال: «... وَهُوَ مَعَكُم...» (الحديد: ٤) ولم يقل: «هو أنتم».

وقال: «... مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...» (المجادلة: ٧) (والرابع غير الثلاثة).

خلاصة الكلام أنه لا يوجد أبداً في القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت أثر للعينية والوحدة، والمنحرفون لأنهم اعتبروا «الوحدة» مصداقاً للإحاطة والقيومية، مالوا إلى كلام الصوفية. ولو أنهم لم يتجاوزوا ألفاظ الوحي وعبارات بيت الوحي وقالوا إن لله إحاطة ولكن ليست كإحاطة جسم بجسم آخر ونحن لا نعلم كيفيتها، لسلموا.